## الفَصل الثّالِثُ

# العلاج النفساني في جاهلية العرب وصدر الإِسلام

### أ) في الجاهلية:

كانت جزيرة العرب قبل الإِسلام تحتل مركزًا وسطًا بين إِمبراطوريتين عظيمتين هما: (١) الإِمبراطورية الرومانية، وقد أَحاطت بالجزيرة من الشمال والغرب؛ إِذ كان الرومان يحتلون سوريا وفلسطين ومصر، (٢) الإِمبراطورية الفارسية، وقد أَحاطت بجزيرة العرب من الشمال والشرق والجنوب؛ فقد كان الفُرس يحتلون بلاد اليمن.

ولا مجال للشك في أَن دراسة الطب ومُمارسته قد شاعا في هاتين الإِمبراطوريتين؛ فالإِمبراطورية الرومانية الشرقية ورثت ثقافة الإِغريق القُدماء، وكياستهم الفنية، ومهارتهم الطبية. ويذكر التاريخ أَن الإِمبراطور جستنيان ثار على الفلسفة والفلاسفة، ونفى فريقًا منهم ممن اصطنعوا الذهب الأَفلاطوني الحديث، وكان ذلك في القرن السادس الميلادي. ويروى أَن عددًا من هؤلاء رحلوا إِلى بلاد فارس فرحب بهم كسرى فنشروا ببلاده الفلسفة والطب، وأَقاموا البيمارستانات، ومن المحقق أَن مهنة الطب كانت قبل ذلك من المهن المعتد بها في بلاد فارس وفي الهند وغيرهما من الممالك الشرقية.

كان من الطبيعي إِذًا أَن يكون لدى العرب قبل الإِسلام أَطباء

يُمارسون الطب ويدرسونه، وبخاصة في الحيرة واليمن وسوريا المتاخمة لتلك البلاد العريقة في الحضارة.

والواقع يُؤيد ذلك؛ فقد اتفق الرواة على أَنه كان ببلاد العرب قبل الإِسلام أَطباء[1] نبغوا في مُزاولة الطب، وفي مُقدمتهم الحرث بن كلدة الذي فد على كسرى أَنو شروان وأَجاب إِجابات سديدة عن أَسئلة في الطب وغيره وجهها إِليه كسرى، فأَقر بفضله وذلاقة لسانه، ومهارته الطبية.

ومنهم ابن حذيم من تيم الرباب وقد مهر في التطبيب بالكي، وقيل إِنه أَطب من الحرث بن كلدة، وكان يُضرب به المثل في الطب فيُقال أَطب من خديم، وأَطب من الكيّ من ابن حذيم.

ومن أَطباء العرب من كان مُعاصرًا للرسول كالنضر بن الحرث بن كلدة الثقفي الآنف الذكر وكان ابن خالة النبي، وقد ذكر عنه أَنه سافر وتنقل في البلاد كأَبيه، واجتمع مع الأَفاضل والعُلماء بمكة وغيرهما، وعاشر الأَحبار والكهنة، وحصل من العلوم القديمة أَشياء جليلة القدر، وأَنه كان كثير الأَذى والحسد للنبي مع أَنه ابن خالته. ولما كان يوم بدر ناصر النضر المشركين، وكان ممن أَسرهم المسلمون فأمر الرسول بقتله.

ومن المقطوع به أَن هؤلاء الأَطباء وغيرهم قد زاولوا علاج الأَمراض الجثمانية بوسائل مادية، ونجحوا في ذلك إِلى حد كبير جدًا، وقد اكتسبوا

---

٣٠) راجع عيون الأَنباء في طبقات الأَطباء لابن أَبي أَصيعة جـ ١ ص ١٠٩ وما بعدها، وبلوغ الأرب في معرفة أَحوال العرب للآلوس جـ ٣ ص ٣٢٨ وما بعدها.

مهارتهم الطبية من التجارب أكثر مما اكتسبوها من الدراسة النظرية.

وليس بين يدي من النصوص التاريخية ما يدل على أن أحدًا من هؤلاء تولَّى العلاج النفساني.

وكان بالجزيرة بجانب هؤلاء الأطباء طائفة من الكهنة الذين ادعوا أنهم كانوا يعلمون الغيب، وأنهم قادرون على استخدام الجن والشياطين في الاتصال بالسماء واستراق أخبار الغيب. وليس من البعيد أن بعضهم أو كلهم حاولوا علاج الأمراض العقلية بوسائل نفسانية، بحكم ما كان لهم من قوة ونفوذ، ومقدرة على التأثير في النفوس.

وليس من الحق في شيء في أن ننكر أن الأطباء والكهنة تناولوا العلاج النفساني في الجاهلية على أساس أنه لم تصل إلينا نصوص تاريخية تُؤيد أنهم تناولوه؛ إذ من الجائز أن تكون هُناك نصوص من هذا القبيل ولكنها لم تصل إلينا، أو أن الحوادث الدالة على أنهم تناولوا هذا الفن لم تُدَوَّن.

ومع أننا لم نعثر على ما يدل على أن أطباء العرب وكهنتهم قد تناولوا الطب النفساني في العصر الجاهلي، فإن التاريخ يقص علينا أن عرب الجاهلية قد اتبعوا عادات[1] طبية أو وقائية مُعيَّنة شاع أمرها فيما بينهم، ودرجوا على اتباعها في حالات مُعينة.

فقد آمنوا بتأثير الخرزات والأحجار والرقي والتمائم، وكانوا يستخدمونها لأغراض مُختلفة منها:

---

٣١) راجع بلوغ الأرب جـ ٣ ص ٥ وما بعدها.

(١) التخلص من بعض الآلام أَو الأَمراض.

(٢) اكتساب الثقة بالنفس عند مُقابلة الحكام أَو الخصوم.

(٣) التحبُّب إِلى الناس.

(٤) تجنب الآفات عامة وإِصابة العين خاصة.

فقد كانوا يعتقدون أَن الرجل منهم إِذا خدرت رجله ذكر من يحب، أَو دعاه فيذهب خدرها، وأَن من اختلجت عينه إِذا قال: «أَرى من أَحب»، فإِن كان غائبًا توقع قدومه، وإِن كان بعيدًا توقع قربه، فيذهب اختلاج عينه.

وكانوا إِذا خافوا على الرجل الجنون أَو تعرّض الأَرواح الخبيثة له نجّسوه بتعليق الأَقذار عليه؛ كخرقة الحيض وعظام الموتى.

وإِذا ظنوا بالرجل مسًّا من الجن عالجوه بالنُّشرة وهي ضرب من الرقية.

وكانوا يعتقدون أَن تناول دم الرئيس يشفي من الكَلَب.

وأَن العاشق إِذا سُقي من السلوانة يسلو؛ والسلوانة حرزنة بيضاء شفافة، أَو هي – كما يقول اللحياني – تراب من قبر يُسقى به العاشق.

ومن خرزاتهم التي اعتدُّوا بها (الخَصمة) وهي خرزة للدخول على السلطان أَو الخصوم تجعل تحت فص الخاتم، أَو في زر القميص، أَو في حمائل السيف. وكانوا يرون أَن تعليق الهَنَّمة، أَو الفطْسة، أَو القَبَلة، أَو الدربيس يُحبب الرجال في النساء. وهذه كلها أَنواع من الخرز.

وكانوا يُعلقون التميمة – وهي خرزة خاصة – لمنع الآفات، وخرزة أُخرى سوداء تُسمى الكحلة لدفع العين عن الصبيان، وخرزة بيضاء تُسمى القَبَلة تُعلق في عنق الفرس من العين.

ولما جاء الإِسلام أَنكر هذه العادات وما يشببها، وعدّ اتباعها شركا؛ لأَنه ينطوي على نسبة التأثير لغير الله. وعلى الرغم من ذلك لم يُقض عليها القضاء التام؛ بدليل استمرار بعضها أَو ما يشبهها حتى عصرنا هذا؛ فلا يزال كثير من العامة يستخدمون التمائم والرقي، ويقيمون حفلات الزار، ويعقدون جلسات للعلاج بالأرواح.

وإِننا إِذا نظرنا إِلى هذه العادات من الناحية النفسية – بقطع النظر عن حُكم الشرع – لم يكن هُناك مجال للعجب والاستغراب حين نسمع بنجاحها وتحقق أَغراضها؛ فإِن نجاحها إِن تمِ إنما يرجع إِلى الأَساس الذي أَوضحناه آنفًا، وهو اعتقاد من يتبعها اعتقادًا جازمًا بمنفعتها ونجاحها.

وأَنت تعلم أَن هذا الاعتقاد هو ما يُسميه علماء النفس «بالإِيحاء الذاتي»، الذي أَصبح من الثابت المقرر قوة تأثيره في النفس تأثيرًا فعالًا.

وهذا التعليل مقبول – على ما يظهر – بالنسبة للغرضين الأَول والثاني؛ أَي التخلص من الآلام أَو الأَمراض، واكتساب الثقة بالنفس. أَما بالنسبة الأَغراض الأُخرى فليس كذلك.

ولعل التعليل الصحيح لتأثير الخرزات ونحوها في التحبب إِلى الناس هو أَن حمل الخرزة يُوحي إِلى حاملها أَن يشعر شعورًا خاصًا نحو نفسه، وهذا الشعور يحمله على أَن يسلك مسلكًا خاصًا يُحببه إِلى غيره فتحدث

المحبة بالفعل. أَلا ترى أَن من يحمل كمية كبيرة من النقود كثيرًا ما يشعر بشيء من العزة والعظمة، ويسلك مسلكًا خاصًا يحمل الناس على احترامه وحُسن الظن به، أَما من لا يكون في جيبه مال فترى علامات البؤس والشقاء بادية عليه، وتراه مع ذلك يتبع سلوكًا يدعو الأَشخاص العاديين إلى النظر إليه نظرة استصغار.

ولعل تأثير التمائم ونحوها في منع العين يرجع إلى أَن وجودها مُعلقة حول الرقبة مثلًا يُوجه إليها الأَنظار، ويجعلها موضع الاهتمام فتنصرف إليها الأَعين.

أَما تأثيرها في تجنب الآفات فلعله يرجع إلى أَنها تكسب حاملها حصانة وثقة بالنفس، وتمدّه بأَفكار قوية مُضادة للإِصابة؛ فتكون بمثابة قوة روحية مُحصِّنة للجسم، تقيه شر التأثر بالآفات.

وإِنما دعانا إلى تلمس التعليل النفساني لنجاح هذه العادات ما نراه من عدم وجود علاقات مادية بين وسائل العلاج أَو الوقاية وبين الأَمراض أَو الآفات؛ فأَنت لا ترى علاقة مادية بين ذكر الحبيب وخدر الرجل، ولا بين التنجس والجنون، ولا بين الرقية ومس الشيطان، ولا بين الشرب من السلوانة والعشق، وهكذا.

وإِذا لم يكن هُناك سبيل إلى التعليل المادي كان من الضروري الالتجاء إلى التعليل النفساني على نحو ما ذكرنا.

أَما نجاح تلك الوسائل في تأدية أَغراضها ولو في بعض الحالات فثابت لا محالة، ولولا ذلك ما صار اتباعها عادة شائعة بتناوبها الخلف عن

السلف؛ إذ أَن الغالب أَن العادة التي تثبت التجارب منفعتها – ولو في بعض الحالات – هي التي تبقى، أَما غيرها فلا يلبث أَن ينقرض.

### العلاج بالقرآن

هذه هي خلاصة القول في العادات الطبية التي شاعت بين العرب في الجاهلية. ولما جاء الإِسلام أَنكرها، ولكنه أَتى بما هو أَهم منها وأَجل شأنًا ذلك هو الاستشفاء بالقرآن الكريم الذي فيه يقول الله تعالى: «ونُنزِّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إِلا خسارا»[١].

يرى بعض المفسرين[٢] أَن الغرض من الشفاء هنا هو الشفاء من الأَمراض الذي هو من خواص آيات الشفاء الست وهي: (١) ويشف صدور قوم مؤمنين[٣]، و(٢) شفاءٌ لما في الصدور[٤]، و(٣) فيه شفاءٌ للناس[٥]، و(٤) وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، و(٥) وإِذا مرضتْ فهو يُشفين[٦]، و(٦) قل هي للذين آمنوا هدًى وشفاء[٧].

قال السبكي وقد جربت كثيرًا. وعن القشيري أَنه مرض له ولد أيس من حياته، فرأَى الله تعالى في منامه فشكا له سبحانه ذلك، فقال له: اجمع

---

٣٢) سورة الإِسراء آية ٨٢.

٣٣) راجع تفسير روح المعاني للآلوس جـ ٤ ص ٥٧٥.

٣٤) سورة التوبة آية ١٥.

٣٥) سورة يونس آية ٥٧.

٣٦) سورة النحل آية ٦٩.

٣٧) سورة الشعراء آية ٨٠.

٣٨) سورة فصلت آية ٤٤.

آيات الشفاء واقرأها عليه، أو اكتبها في إناء واسقه فيه ما محيت به، ففعل فشفاه الله.

قال الآلوس: والأطباء معترفون بأن من الأمور والرقي ما يشفي بخاصية روحانية. وكان ابن سيرين لا يرى بأسًا بالشيء من القرآن يعلقه الإنسان كبيرًا أو صغيرًا مُطلقًا. وهو الذي عليه الناس قديمًا وحديثًا في سائر الأمصار.

ويرى فريق من المفسرين أن «من» في الآية الكريمة السابقة ليست للتبعيض وإنما هي للجنس كما في قوله تعالى: «فاجتنبوا الرجس من الأوثان»[1]. ومن هؤلاء المفسرين الإمام فخر الدين الرازي. وهاك ما قاله في هذا الصدد. وهو قول يفيض معرفة وعلمًا وفصاحة وبلاغة، يقول رحمه الله[2]:

«واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية، وشفاء أيضًا من الأمراض الجسمانية؛ أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر؛ وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان: الاعتقادات الباطلة، والأخلاق المذمومة. أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادًا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، والقرآن كتاب مُشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها. ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب والقرآن مُشتمل على

---

٣٩) سورة الحج آية ٣٠.

٤٠) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ٤٣٣.

الدلائل الكاشفة عمَّا في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني».

«وأَما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أَنا بيَّنا أَن الأَرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأَخلاق الفاسدة. والقرآن قسمان بعضهما ما يفيد الخلاص عن شُبهات الضالين وتمويهات المبطلين، وهو الشفاء، وبعضهما ما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية، والأَخلاق الفاضلة، التي بها يصل الإِنسان إلى جوار رب العالمين، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين، وهو الرحمة. ولما كان إزالة المرض مُقدمة على السعي في تكميل مُوجبات الصحة لا جرم بدأ الله تعالى في هذه الآية بذكر الشفاء، ثم أتبعه بذكر الرحمة».

«واعلم أَنه تعالى لما بيَّن كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بيَّن كونه سببًا للخسار والضلال في حق الظالمين، والمراد به المشركون. وإِنما كان كذلك لأَن سماع القرآن يزيدهم غيظًا وغضبًا، وحقدًا وحسدًا، وهذه الأَخلاق الذميمة تدعوهم إِلى الأَعمال الباطلة، وتزيد في تقوية تلك الأَخلاق الفاسدة في جواهر نفوسهم. ثم لا يزال الخلق الخبيث النفساني يحمل على الأَعمال الفاسدة، والإِتيان بتلك الأَعمال يقوي تلك الأَخلاق. فبهذا الطريق يصير القرآن سببًا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين في درجات الخزي والضلال والفساد والنكال».

وإِنك لترى من نص القرآن نفسه، ومن هذا التفسير الرائع أَن الشيء الواحد قد يكون نعمة لبعض الناس، ونقمة لبعض، وذلك تبعًا

لوجهة نظرهم إليه واعتقادهم فيه؛ فالمؤمنون يطمئنون إلى القرآن، فيوحي إليهم بصحة الجسم والنفس والخلق، والمشركون يكفرون به، ولا ترتاح نفوسهم إليه، فيسلكون معه مسلك المكابرة والعناد، وتتحرك في أَنفسهم الأَحقاد، وتطغى عليهم انفعالاتهم المريضة، فلا يزدادون إلا ضلالًا وفسادًا، ولا غرو فالنعمة للرجل خير ورحمة، ولعدوه شر ونقمة.

وهُنا تحضرني حكاية طريفة تُعد دليلًا عمليًا على صحة ما تقدم:

روى النظامي العروض السمرقندي[1] عن الإمام أَبي بكر الدقاق قال: أُصيب رجل من أَعيان نيسابور بالقولنج سنة ٥٠٢ هـ، فاستدعاني لعلاجه، ففحصته وشغلت بعلاجه، وقمت بما فتح الله عليّ به من أَنواع العلاج المناسبة لتلك الحالة، ولكن لم تبد على المريض علامات الشفاء، ومر على مرضه ثلاثة أَيام. وفي وقت العشاء رجعت إلى منزلي، وأَنا مُعتقد أَن المريض سيقضي نحبه مُنتصف الليل، ثم أَخذتني سنة من النوم وأَنا أَشعر بالألم، واستيقظت في الصباح وليس لدي شك في أَن المريض قد قضى، وصعدت إلى سطح البيت، ووليت وجهي نحو بيت المريض، وأنصتُّ، فلم أَسمع صِراخًا يدل على وفاته، فقرأت سورة الفاتحة مُوليًا وجهي نحو ذلك البيت ثم قلت: «إلهي! وسيدي! ومولاي! لقد قلت في كلامك المبرم وكتابك المحكم: «ونُنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» وقد حلت بي الحسرة على ذلك الشاب، الذي يستمتع بأسباب النعيم، وقد امتلأت نفسه آمالًا وأمانيّ. ثم توضأت ودخلت المصلى، وصليت النوافل،

---

٤١) راجع كتاب جهار مقالة بالفارسية (ص ٦٩، ٧٠).

وإذا بشخص يقرع باب الدار، فالتفتُّ فإذا هو البشير يقول: «افتح!» فقلت: «ماذا حدث؟» قال: «لقد استراح المريض الآن»، فعلمت أَن ذلك ببركة الفاتحة، وأَن هذه جرعة من الصيدلية الربانية، فكانت هذه تجربة حسنة لي. وقد وصفت هذه الجرعة عدة مرات فجاءت موافقة، وتم بها الشفاء. ولذا يجب أَن يكون الطبيب صادق الاعتقاد، وأَن يُولي أَوامر الشرع ونواهيه ما تستحق من تعظيم وإِجلال».

ولا غرو؛ فإِن الدعاء الصادر عن يقين ثابت، وإِيمان عميق صادق ينفذ من القلب إِلى القلب، ويعمل عمله في النفوس طبقًا لتلك الظاهرة النفسية العجيبة المسماة تيليباثي (Telepathy)؛ أَي تخاطب الأَرواح، التي على أَساسها قامت طريقة علاج الغائب (Absent Treatment) التي سنتحدث عنها فيما يأَتي.